



ضمن ملف " كلارا زتكين سيدة 8 مارس الأولى " يقدم موقع 8 مارس الثورية سلسلة من الحلقات تحت عنوان "مشكل المثقفين" ل " كلارا زتكين "

الحلقة الثانية

صراع المثقف ضد منافسة النساء وتحررهن

هذا يعني أن البورجوازية لم تكن قادرة على ضمان للعاملين في مجال الثقافة وضعية تناسب مستوى عيش يناسب مكانتهم ، والذي كانت تضمنه لهم لحد الآن .

إن أول تظاهرة جماهيرية متميزة تثبت أن هذه المشكلة موجودة في المجتمع البورجوازي ، وهي ذلك الصراع الحاد والحماسي للمثقفين ضد ولوج النساء التعليم العالي والأنشطة المهنية. فماذا كانت تخفي إذن الابتذالات الإيديولوجية للأساتذة والدكاترة والآخرين من أمثالهم ، الذين انطلقوا في حرب ضد تحرر النساء ؟ إنه أساسا الخوف من المنافسة.

إن الصراع ضد التكوين المهني وعمل المرأة يفصح عن أمرين وهما : أولا ، عدم قدرة المرأة البورجوازية ضمان دخل للمثقفين يمكنهم من الحفاظ على مكانتهم ، وفي هذه الأوساط ، لا تقدر الأسر على ضمان الوجود المادي للنساء ، ولا أن تمنحها هدفا ومثالا للوجود ، ثم خشية المثقفين من أن يروا وضعيتهم الخاصة تتدهور إذا ما ولجت النساء التعليم العالي والحياة المهنية ، والوقائع تؤكد ذلك ، ففي روسيا القيصرية مثلا ، فهذا الصراع لم يتواجه فيه – كما في أوروبا الغربية – الأزواج مع زوجاتهم ، بل الأجيال أي الآباء والأبناء ، والمحافظون على الإيديولوجيا القديمة للنظام الفيودالي والاستبدادي ضد المدافعين عن الإيديولوجيا البرالية للمجتمع البورجوازي الصاعد.

وفي الوقت الحالي ، الذي وصلت فيه أزمة الأنتلجنسيا حدة لم يكن يتصورها أحد ، فإن الصراع ضد عمل النساء ، الذي كان قد انطفاً تقريبا قبل الحرب ، عاد ليخرج من عقاله من جديد ، وليس فقط عند المنهزمين ، بل عند الذين يسمون "منتصرين" ، ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا ، حيث حاز النضال من أجل مساواة

النساء بالرجال على أولى انتصاراته الكبيرة ، نكتشف حاليا في بعض الأوساط (أساتذة ...) تيارا قويا إلى حد ما ضد توسيع حقل الأنشطة النسائية ، حيث ينتشر وسطها الشعار التالي "كل تقدم للمرأة هو تراجع للرجل".

إصلاحات ، مصالحة أو نداء للنوايا الحسنة للباطرونا

لكن هناك أيضا ظاهرة جماهيرية أخرى ، تبرهن على أن مشكل الأنتلجنسيا يتطور وسط المجتمع البورجوازي ، فمنذ حوالي سنة 1880 نرى ظهور وباء حقيقي من الإصلاحيين الاجتماعيين من جميع الاتجاهات : اشتراكيو المنبر¹ ، مصلحون زراعيون ، سلميون ، مدعوا الفن ، المالتوسيون الجدد ، المصلحون الجنسيون الخ ... فما الذي يميز هذه التيارات ؟

إن واحدة من النقط التي يشتركون فيها ، اكتشافهم الفجائي ، أنه يوجد هناك مشكل اجتماعي ، ويختفي وراءه شبح البروليتاريا العملاق ، التي انخرطت في النضال الثوري.

إن موقع المثقفين بين الطبقات ، ووضعهم الهجين بين الطبقات الأساسية للمجتمع ، التي تهيء لتصفية حسابات كبيرة بين العمل والرأسمال ، تخرج من بين صفوفهم رسل المصالحة الطبقية ، فهم يدعون البورجوازية والبروليتاريا إلى عقد السلم بينهما ، وهذا شيء جديد وفريد من نوعه ، ففي ما مضى كان المصلحون الاجتماعيون - باستثناء القليل منهم تقريبا - يضعون كل آمالهم في تفهم وطيبة قلب المالكين والحكام. هؤلاء الإصلاحيون يرفضون صراع الطبقات فبالأحرى الثورة ، فهم ينتظرون كذلك كل شيء من بورجوازيين مستغلين (بكسر الغين) وبروليتاريين مستغلين (بفتح الغين) بدأوا يتمردون.

إنه من المهم جدا تسجيل أنه بالضبط في ألمانيا ، بلد "النظرية" حيث التيارات الإصلاحية ، المعبر عن مشكل المثقفين ، وحيث بلورتها النموذجية في شكل "اشتراكية المنبر" ومختلف تنوعاتها ذات الطبيعة العلمية بهذا القدر أو ذاك.

وفي فرنسا بلد "السياسة" فهي تترجم في الموضة التي تتوسع أكثر فأكثر ، والمتمثلة في الأحزاب البورجوازية الجدرية التي تعمل قليلا في "الاجتماعي". إننا نرى إذن ، بروز أحزاب أو جنين أحزاب تسمى ديموقراطية اشتراكية واشتراكية جدرية أو أي شيء آخر ، فالأساسي أنه توجد كلمة اشتراكي في العنوان ، وقد كان الممثل اللامع لهذا الاتجاه رفيقنا جوريس في فرنسا. و انطلاقا من هنا ، فقد تطور بشكل منطقي إلى غاية الاشتراكية ، بدون أن يتخلص في المقابل من بقايا الديموقراطية البورجوازية والإيديولوجيا البورجوازية.

1. اشتراكيو المنبر ، كانوا أساتذة الاقتصاد السياسي يدعون بعض الإصلاحات الاجتماعية وأهم من يمثلهم : غوستاف شمليير (Gustav Schmoller) ، لوجو برينطانو (Lujo Brentano) ، ورنير سومبارت (Werner Sombart).

أما في إنجلترا ، فإن التعبير الكلاسيكي عن الحركات الإصلاحية المرتبطة بمشكل المثقفين هو الجمعية الفابية² التي تسمى نفسها الاشتراكية البناءة ، والممثلة أيضا في وسط الحزب العمالي ، والممثلة أساسا بالمثقفين . في كل البلدان الرأسمالية أثر الإصلاحيون الاجتماعيون المنبثقون من الأنتلجنسيا في الأرستقراطية العمالية ووجدت أفكارهم امتدادها الأكثر جذرية في الانتهازية والحركة الإصلاحية العمالية .

من إصلاحيين إلى أنصار الامبريالية

مهما كان برنامج المثقفين ، المصابين بالحمى الإصلاحية ، فإنهم كلهم متفقون على عدم المس بأسس النظام البورجوازي ، ليرفضوا إلغاء الملكية الخاصة ، وبالتالي السيطرة الطبقية والصراعات العدائية الطبقية التي يحلمون بتلطيفها ، لكن هؤلاء السادة كانوا في حاجة إلى قاعدة ينطلقون منها لتحقيق إصلاحاتهم .

يوجد خط مباشر بين المصلحين الاجتماعيين والامبريالية ، فالامبريالي الانجليزي المشهور سيسيل رودس أطلق الصيغة المعبرة : "الامبريالية أو الثورة" . وفي الواقع ، فإن الإصلاحيين البورجوازيين ، الذين يريدون تفادي الثورة دون المس ، مع ذلك ، بذلك المبجل - المقدس ألا وهو الربح ودون المس بالسيطرة البورجوازية ، كانوا يبحثون عن قاعدة اقتصادية لإصلاحاتهم فوجدوها خارج وطنهم ، في استغلال الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة ، والتي بفضل النهب بدون ضمير والاستعباد للإنساني للأهالي ، تجني أرباحا هائلة ، والتي على قاعدتها ينتزع الرأسماليون بعض الفتات من أجل تمويل تنازلات نقابية ناذرة وإصلاحات اجتماعية يمنحونها ل "مواطنيهم" ، لكن تحول هؤلاء الإصلاحيين الاجتماعيين إلى مبهدين أوائل للامبريالية ، كان له هدف آخر ، وهو الحرص على وجودهم الخاص .

إن العاملين في الثقافة بحكم عددهم لم يعودوا يجدون أي عمل مجز في بلدانهم ، ولا يستطيعون البتة العيش فيها حسب "مرتبتهم" ، فالمستعمرات أهدتهم أفق مهن لامعة ومداخل مرتفعة ومضمونة ومغامرات وأمجاد ، ففي هذه الظروف فليس من باب المفاجأة ، أن الامبريالية كانت قد وجدت وسط المثقفين أنصارها الأكثر حماسا ، من ذلك الحارس الليلي إلى الوزير ، من معلم القرية إلى أستاذ الجامعة ، من ذلك الواصف الصحفي النكرة في صحيفة يومية إلى باحث ، فقد اكتشفوا جميعا الامبريالية وذهبوا إلى الشعب لنشرها .

كما صهر المثقفون في الماضي الإيديولوجيا البورجوازية ، إيديولوجية الدولة الوطنية ، فإن الجيل الجديد وفر مداحي الامبريالية وسفسطائيي النظريات العرقية الخاطئة علميا ، التي كانت تبرر كل التناقضات وبشاعات

2 . جمعية اشتراكية انجليزية تأسست في لندن سنة 1883 من طرف إدوارد بيس (Edward Pease) ، كان أعضاؤها بالأساس مثقفون من بينهم برنار شاو (Bernard Shaw) و ولس (Wells) .

السياسة الاستعمارية ، فقد جعل المثقفون من أنفسهم الدعاة الأكثر تعصبا ، ومنظمو الامبريالية المدافعون عن الاستغلال والاستعباد بكل شراسة في المستعمرات وشبه المستعمرات ، مثقفون بينوا أنهم عندما يتعلق الأمر بنهب واستعباد شعوب المستعمرات يعرفون كيف يربطون العنف الدنيء للمغامرين الاستعماريين الإسبان في مرحلة التراكم البدائي للرأسمال بتهذب وتلطف الغزاة العصريين والمتحضرين .

إن المثقفين مع كبار رأسماليي الصناعة والمال ، هم المسؤولون الكبار عن السباق نحو التسليح وعن الحرب العالمية وتمديدتها ، وإذا كان هناك ، إلى جانب كبار البورجوازيين والخونة الإصلاحيين أناس ملطخون بالدم المهرق خلال أربع سنوات من المجزرة ، فهم المثقفون الذين تبنا فكرة الوطن الكبير ، باعتبارهم مبهدين للفكرة الامبريالية ، فهم مسؤولون عن هذا النصب والاحتيال وخداع الجماهير ، الشيء الذي سمح بالسباق نحو التسليح لكل الأمم المسماة متحضرة ، لقد طوروا هذا الذهان القاتل للجماهير الذي سمح بتمديد الحرب خلال سنوات .

نزع ملكية البورجوازية المتوسطة والصغيرة وإفقار البروليتاريا

لقد شاءت سخرية التاريخ أن يكون المثقفون الفئة الاجتماعية التي ضربتها الحرب العالمية بكل قساوة أكثر من غيرها ، ذلك أنه لم تخرج أي من القوى المتصارعة التي كانت تحلم بانتصارها ، منتصرة ، فالوحيدة الذي خرجت رابحة من هذه الحرب هي البورجوازية الكبيرة في كل البلدان ، فالذين انهزموا في الحقيقة هم البروليتاريون والبورجوازيات الصغيرة ، معنى ذلك أيضا ، العاملون في مجال الثقافة في البلدان المنتصرة كما في البلدان المنهزمة ، فقد تحددت وضعيتهم منذ ذلك الحين بالدمج بين عاملين : نزع ملكية البورجوازية الصغيرة والمتوسطة وإفقار البروليتاريا ، فاقتران هذين العاملين ، نتج عنه تدهور ملموس في مصير المثقفين ، فوضعيتهم أصبحت وضعية محنة ، فهي تتميز بغياب الأمان والاستقرار في الشغل والدخل وفترات طويلة من البطالة وانخفاض الأجرة ، وإذا لم يكن ذلك بأرقام مطلقة بالنسبة لكل البلدان ولكل المهنة ، فإنه كيفما كان الحال ، في كل مكان بالمقارنة مع تكلفة المعيشة وضرورة تغيير المهنة ، وفي كثير من الأحيان ترك تلك التي تهيأ لها المثقف خلال سنوات عديدة ، وإجبارية البحث عن مصدر عيش إضافي ، في المعمل وفي التجارة وفي ورش بناء وفي مقهى ، باختصار في أي مجال كان سوى ذلك الذي له علاقة بعمل المثقف ، واستحالة تربية أبنائه "حسب مرتبته" وحتى تغذيتهم بشكل ملائم . إنه الانزلاق نحو البروليتاريا.

علي أن أسطر الطابع العالمي لهذا الوضع المأساوي للأنتلجنسيا ، أجل ، إنه صعب الاحتمال بشكل خاص في ألمانيا لأن النتائج العامة للحرب فيها زادت نتائج الهزيمة من مضاعفتها ، لكن لا شيء أكثر تغليطا من تخيل

أنها تختص بها فقط الدول المنهزمة ، إن الواقع يناقض هذا التفسير ، وها هو واحد منها : إنه بالضبط في ألمانيا تجلت أولى صعوبات الأنتلجنسيا ، وهذا قبل الحرب ، وفي زمن حيث كان الاقتصاد الرأسمالي في أوجه ، وحيث أن السلطة السياسية كانت في أوج قوتها ، فمنذ ما قبل الحرب كان دخل المهندسين الشباب والتقنيين والكيمايين أقل من دخل العمال ذوي المؤهلات المرتفعة و منذ ما قبل الحرب كان هناك فائض هام من المثقفين وأشباه المثقفين ، الذين لم يكونوا يتوفرون على عمل أو على الأقل لا يتوفرون على شغل قار ، والذين لا يأكلون ملام معدتهم . لكن هناك حقيقة أخرى تثار أيضا ضد تفسير قومي لبؤس العاملين في مجال الثقافة الذي يستعمله الفاشيون والإصلاحيون لتأجيج المشاعر الشوفينية.

تحسب فرنسا ضمن المنتصرين ، ومع ذلك نسجل فيها نفس الظواهر ، فهنا أيضا انخفضت مداخيل المثقفين بشكل واضح جدا ، وهي أقل في بعض الأحيان من مداخيل البروليتاريين المؤهلين.

في ألمانيا يتم شجب الإساءة المخزية بشكل خاص للقوى الرأسمالية لمحور الوفاق ، التي وضعت ألمانيا تحت المشرط ، فقد ظهر "الطالب الأجير" ، يعني الطالب المكره على مزاوله عمل يدوي إلى جانب دراسته ، من أجل أن يتمكن من العيش ، ف 53% نسبة الطلبة في تسع جامعات كانت على هذه الحال لفصل دراسي (أسدس) في شتاء 1922 – 1923 ، بل 60% حسب مصادر أخرى.

لكن كيف هي الوضعية في البلد الذي عليه أن يؤدي نتائج الخسائر وحيث ظهر فيه انتعاش نسبي في بعض قطاعات الإنتاج ؟ في فرنسا أيضا ، هناك عدد هام ومنتزاد من الطلبة الذين يعملون ككناسي شوارع ونادلون في مقهى أو خادمون في مجزرة ، ويقومون أيضا بمنافسة العمال في صناعة الملابس النسائية الخ ...

هناك أكثر من ذلك ، فأزمة الأنتلجنسيا توجد أيضا في الأكبر والأغنى من كل البلدان المنتصرة ، وهي الولايات المتحدة الأمريكية ، أجل ، وإن كان بشكل طفيف ، وفي ظروف أخرى مختلفة عن أوروبا ، فقد بدأت في زمن الأزمة الاقتصادية الكبرى لما بعد الحرب ، لكي تتراجع في ظرفية الازدهار ، لكن كثير من العلامات تشير إلى أنها لم تتوقف بصفة نهائية ، بل تنبعث من جديد مع بداية أزمة اقتصادية جديدة.

الحاصل ، أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار ، أن ظروفنا خاصة تؤثر على أزمة الأنتلجنسيا بالولايات المتحدة الأمريكية ، فالمهندسون والتقنيون الخ ... هم بصفة عامة مهتمون بالأرباح ، فحتى في حالة البطالة فهم مع ذلك يتوفرون على بعض الموارد ، فالتكوين بالنسبة للمهن التي يقال عنها مهن عالية ، تجري تبعا لمخططات مختلفة تماما عن تلك التي هي جارية في الدول ذات الثقافة الرأسمالية القديمة. ليست الجامعات محتكرة من طرف الدولة ، والولوج إليها ليس قاصرا على فئات مغلقة محظوظة ، بل يتم الولوج إليها بكل سهولة أكثر منا ،

فالتعليم عندهم منظم بشكل مختلف ، فهو يسمح بالتوفيق بين العمل اليدوي والعمل الفكري ، ويمكن التوقف مؤقتا عن الدراسة لممارسة نشاط آخر. باختصار ، فالتكوين "العالي" مصمم بشكل أقل ضيقا ، فداخل الشركات لا نسجل فصلا صارما ما بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، بالعكس ، فإن المثقفين هم بصفة عامة قادرين على القيام بعمل يدوي ، ولهذا السبب من السهل نسبيا الانتقال من نشاط لآخر.

وأخيرا يجب الأخذ بعين الاعتبار التصور الذي عند الأمريكيين للعمل بصفة عامة ، فهو بالنسبة إليهم يصلح بصفة أساسية لربح المال ، فطبيعته هي مسألة ثانوية عندهم ، لهذا السبب - في أمريكا على عكس التصور الذي يسود في أوروبا - فإن يمارس مثقف ، مؤقتا ، عملا يدويا لا يتم الإحساس تماما بأنه نزول في الدرجة على المستوى الاجتماعي ، شرط أن يمكنه من العيش.

في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، فإن تدهور وضعية المثقفين تترجم بصراع متصاعد ضد منافسة الأوربيين المهاجرين ، الذين يتوفرون على تكوين علمي وتقني ، فظروف الهجرة أصبحت صعبة أكثر فأكثر عما كانت عليه.

إذن يحق لنا التأكيد على أن أزمة الأنتلجنسيا هي ظاهرة مرتبطة بالأساس بجميع البلدان الرأسمالية ، ويظهر أنها أقل حدة في إنجلترا بالرغم أن عدد "فقراء جدد" قد تصاعد بشكل جلي ، لكن استغلال المستعمرات شكل دعما للاقتصاد الرأسمالي ، وأن الأرباح الإضافية التي حققتها البورجوازية الإنجليزية في البلدان المستعمرة استفادت منها إلى حد ما الطبقة المتوسطة وذلك ، على شكل فوائد ألب... مما سمح لبعض المثقفين من النجاة في أسوأ ظروف الأزمة ، ومع ذلك ، وحتى في إنجلترا فإن وضعية العاملين في المجال الثقافي تتدهور ، فلا يعدم ناس عاطلون ، أو ليس لهم سوى أعمال موسمية - خاصة في قطاعات الإنتاج والتجارة - والهوة بين الموارد وتكلفة المعيشة يتم الشعور بقساوتها أكثر.

لا يمكنني اليوم مع الأسف استحضار وإن بشكل موجز مشكل الأنتلجنسيا في المستعمرات ، وأتمنى أن أتمكن من القيام بذلك لاحقا.

2017 - 5 - 26

ترجمته عن الفرنسية جميلة صابر